المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
إدارة الثقافة والنشر





قصص إسلامية

١٧

أسَدُ الإسلامِ

فاتح صَقلّية



تأليف الدكتور
عبدالرزاق الحاج عبدالرحيم حسين

١٤٠٧هـ ١٩٨٧م



رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com





المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
إدارة الثقافة والنشر

١٧

قصص إسلامية

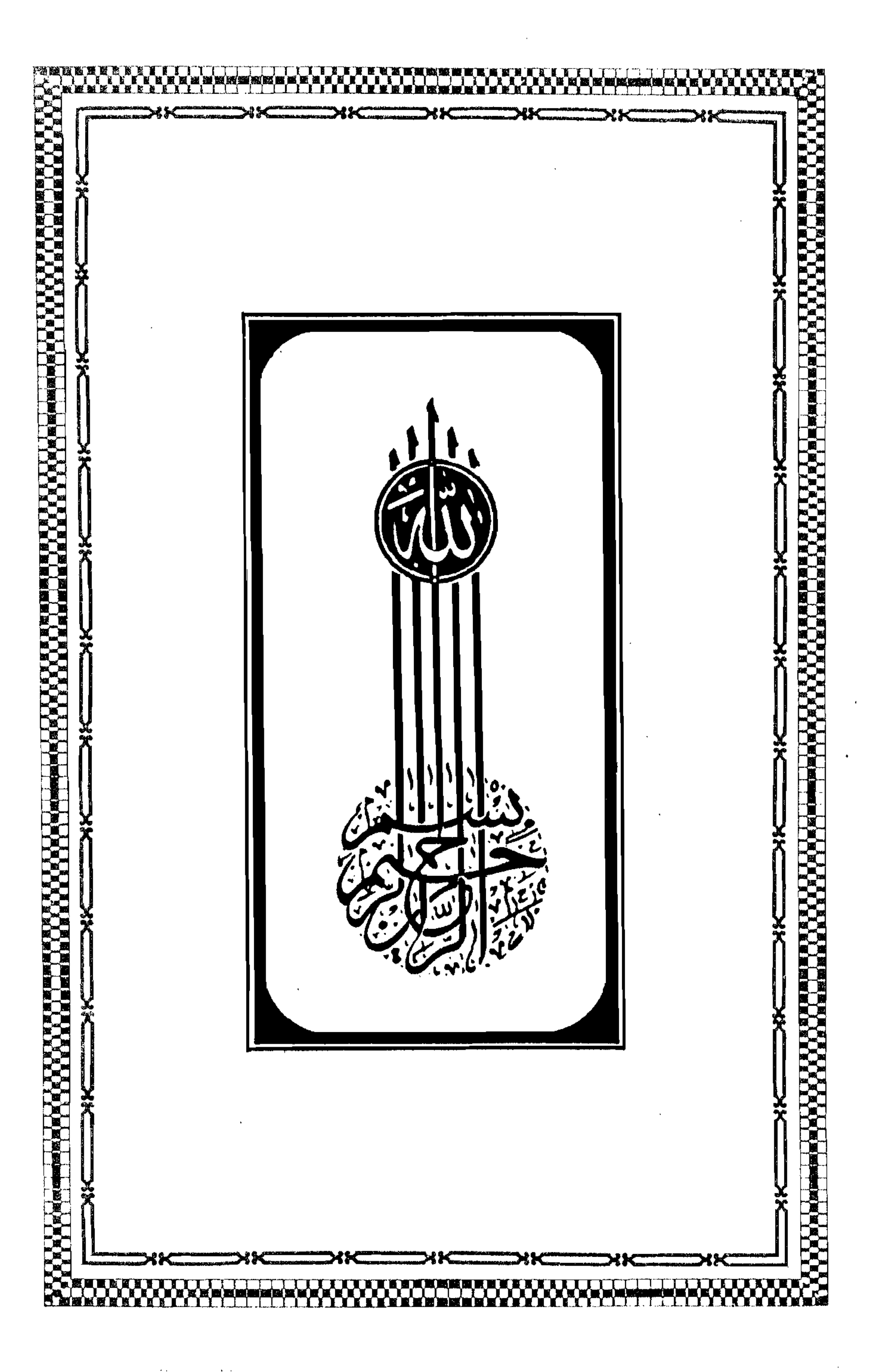
أسد الاسلام

فاتح صقلية

تأليف الدكتور

عبدالرزاق الحاج عبدالرحيم حسين

١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــم

أحبــاءنا وفلـذات أكبـادنا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. . وبعد :

فهذه القصص اسهام من الجامعة في رعاية الطفولة وبداية في سبيـل امـداد أبنـائنا بالعدد من القصص الاسلامية الهادفة التى تربى فيهم المحبـة لله تعـالى وطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما تزرع بينهم روح المحبــة والإخــاء والعــزة والابـاء، وتوضح لهم جانبا من سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام وسيرة بعض الرجال الذين خلد ذكر هم التاريخ لما كانوا يتصفون به من قوة الايـمان بالله التى أوجـدت فيهم الشجاعة والاقدام والصدق والاخلاص في سبيل نشر الاسلام والذود عن حياضـه .

وقـد أعـادت الجـامعة طباعة عشر قصص إسلامية مختارة بعد إجـراء بعض التعـديـلات الـلازمة وقد حققت نجاحا كبيراً ولله الحمــد كما سنعيـد نشـر عدد من القصص الأخـرى التى نراهـا صالحـة ومحققـة لما نتوخاه من نفعها العام على أطفالنا الأحباء كما

حاولت الجامعة من جانبها اعداد قصص مناسبة تنشر للمرة الأولى وها هى بين يديكم واحدة من هذه القصص نرجو أن تحقق الهدف المأمول منها.

ونسأل الله التوفيق والسداد للجميع

إدارة الثقافة والنشر بالجامعة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أَصْدِقائي الأحبّاء: هَلْ رَأَيْتُمْ أَسَداً يَفْتَحُ جَزيرَةً ؟

وَهَـلْ تَعـرفونَ مَنْ هو «أَسَدُ الإِسْلامِ» بَطَلُ قِصَّتِنا، فاتِحُ صِقِلِّيَّة ؟ وَمَا هِيَ صِقِلِّيَّة ؟

إِنَّهُ أَسَدُ بنْ الفراتِ بنِ سنانٍ مَوْلى بَني سَليم، أَصْلُهُ مِنْ خُراسان، وُلِدَ بِحرَّان سنة ١٤٢هـ، ورَحَلَ إلى تونسَ مَعَ أبيهِ في جيشِ ابنِ الأَشْعثِ، ثم رحَـلَ إلى المشـرقِ في طلبِ العلمِ وتَفَقَّهَ على يَدِ أُسْتاذِه مُحَمَّدِ بنِ الحسنِ وشيخِهِ الإمامِ مالـكِ بنِ أنسٍ، تَولَّى قضاءَ القَيْروانَ سنة ٢٠٣هـ، وبَعْدَها بِتِسْـعِ سَنـواتٍ أصبحَ قائـداً عامـاً للجيشِ المتوجِّهِ لفتحِ صِقِلِّية، وَمِنْ مينـاءِ سُوسَـة في تونسَ رَكِبَ أَسَدُ بنُ الفراتِ البحرَ غازياً إلى صقلية، وفتحَ كثيرا من معاقِلِها، واستشهدَ عام ٢١٣هـ وهو يحاصِرُ أَحَدَ حُصُونِها.

كانَ شُجـاعـاً حازِمـاً صاحِبَ رَأْيٍ، وَهُـوَ مُصَنِّفُ كِتابَ «الأَسَدِيَّة» في فِقْهِ المالِكيَّةِ.

جَزيرةُ صِقِلِّيَة :

أَكْبَـرُ جُزُرِ البحـرِ الأبيضِ المتـوسطِ، مثلثـةُ الشَّكْـل ، مساحتُها ٢٥٨١٥ كم مربعاً، تُقابِلُ السَّاحِلَ التونسي ، وتَبْعُدُ عَنْـه حوالي ١٣٠ كم، وهي تابعـةً لإيطاليا، ويَفْصِلُهـا عنها مَضيقُ «مسّينا» بها سُهولٌ خَصْبَةٌ، وجبالٌ خضراءُ، وبها يقعُ بُرْكان «إتْنا» المشهورُ.

أَهَمُّ مُدُنِها: بَلَرْمُ العاصمة، وسَراقُوسَةُ ومازرُ وإطرابنْشُ وَقَدْ وَصَفَها ابنُها المتشوِّقُ لَها الشاعِرُ العَرَبِيُّ ابنُ حمد يس فقالَ :

بَلَـدٌ أَعَارَتْهُ الحمامَـةُ طَوْقَها وكَسَاهُ حُلَّةَ ريشِهِ الطَّاووسُ

وبعـدُ، أيُّهـا الأصـدقـاءُ الأعزَّاءُ، تعالَوْا مَعِي إلى قِصَّتِنا الرائِعَةِ الَّتِى تُمَثِّلُ ضَرْباً من الجِهادِ العظيم، هُناكَ وراءَ البَحْرِ كانَتْ خيولُ الإسْلامِ تَدُقُّ بحوافِرِها الأَرْضَ وفَوْقَ الذُّرَى تُرَدِدُ الْكَائِنَاتُ الهُتَافَ القُدُسِيَّ الأَبَدِيَّ :

« لا إلـه إلَّا اللَّهُ مَحمَّدٌ رَسولُ اللَّهُ»

د. عبدالرزاق الحاج عبدالرحيم حسين

أسَدُ الإسلامِ

تَذَمَّرَ الطِّفْلُ الصَّغيرُ «أَسَدُ بنُ الفُراتِ» عِنْدَما حَطَّت الأُسْرَةُ رِحالَهَا في مدينةٍ صَغيرةٍ بالقُرْب من القَيْروانِ عاصمةِ المغربِ الأَوْسطِ، نَظَرَ إِلى قَدَمَيْهِ ثُمَّ نَظَرَ إلى وَجْـهِ أَبيهِ الذي كانَ مَشْغولاً بإنزالِ الأَمْتِعَةِ عَنْ ظَهْرِ دابتِهِ، ولكنَّهُ عَطَفَ عَلَيْهِ بِحُنُوٍّ أَبَوِيٍّ قائِلاً:

هَلْ تَشْكُو مِنْ شَىءٍ يابُنَيَّ ؟

أَجابَ أَسَدٌ وَعَيْناهُ مُثَبَّتَتانِ على قَدَمَيْهِ:

قَدَمايَ يا أَبي تُؤْلِماني بِشِدَّةٍ.

ٱبْتَسَمَ ٱلْأَبُ ثُمَّ أَمْسَكَ ـ على الرَّغْمِ مِنَ انْشِغالِهِ بالمُسْتَقَـرِّ الجَـديدِ ـ بِقَـدَمَيْ طِفْلِهِ الـطَّرِيَّتَيْنِ وَراحَ يُدَلِّكُهُما، ثُمَّ مسَحَ على رأسِهِ وَقَبَّلَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ قائِلاً:

لَقَدْ تَعِبَتْ قَدَماكَ مِنْ طُولِ الرِّحْلَةِ يا أَسَدُ، ولكنَّها

هِجْرَةٌ في سبيلِ اللَّهِ يا وَلَدِي ، ولقدْ سَمِعْتُ أَنَّ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ قال : «الأعمالُ بالنِّيَّةِ وَلِكُلِّ امْرِءٍ ما نَوى، فمن كانت هجرَتُهُ إلى اللَّهِ ورَسولِهِ فهجرتُهُ إلى اللَّهِ ورسولِهِ، ومن كانت هجرتُهُ لدنيا يُصيبُها أو امرأةٍ يتزوّجُها فهجرتُهُ إلى ما هاجَرَ إلَيْهِ» .

فأَرْجُو من اللَّهِ أَنْ يَكونَ مَسيرُنا هذا هِجْرَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ. واحْفَظْ عنّي يا أَسَدُ: إنَّ قَدَمَيْ الإنْسانِ تَقُودانِهِ إلى الجَنَّةِ أَوْ النَّارِ، فاسْعَ يا بُنَيَّ بِهِما إلى الجَنَّةِ .

اسْتَقَرَّتْ نَظَراتُ الصَّبِيِّ على قَدَمَيْهِ ، وَهْوَ لا يَدْري لِمَ يَنْظُرُ إليْهِما ؟ أَهُوَ بِسَبَبِ مَا يَشْعُرُ بِهِ مِنْ أَلَمٍ لِطُولِ الرِّحْلَةِ مِنْ بلادِهِ في فارِسَ إلى تُونسَ في المغربِ الأَوْسَطِ بلدِ العلمِ والنُّورِ؟ أَمْ لأَنَّ أَباهُ تَحَدَّثَ عَنِ الأَقْدامِ وأَهَمِّيَتِها ؟ أَمْ لِشَيءٍ لا يَعْلَمُهُ مَكْتوبٌ في ظَهْرِ الغَيْبِ ؟

نَعَمْ، ماذا كُتِبَ لِهاتَيْنِ القَدَمَيْنِ النَّحِيلَتَيْن ؟

نَسِيَ الوَلَدُ أقْدامَهُ، تَثاءَبَ، فَرَكَ عُيونَهُ، وَلَمْ يَعُدْ يَقْوَى على مُتابَعَةِ وَالِدَيْهِ وَهُمَا يَقُومَانِ بِتَرْتيبِ مَواعينِ البَيْتِ الجَديدِ، فَتَوَسَّدَ ذِرَاعَهُ وَرَاحَ في نَوْمٍ عَميقٍ.

انْتَبَهت الأُمُّ فَحَمَلَتْ طِفْلَهـا، وَوَضَعَتْهُ في فِراشِهِ الَّذي أُعِدَّ لَهُ، وَتَابَعَتْ عَمَلَهَا.

آسْتَيْقَظَ أَسَـدُ فَزِعـاً عَلى صَوْتِ وَالِدِهِ وهوَ يُوقِظُهُ لِصلاةٍ الفَجْـرِ، «بسمِ اللَّهِ الـرَّحْمنِ الـرَّحيمِ» قال الوالِدُ: مالَكَ يا بُنَيَّ ؟

وَيَرُدُّ أَسَـدُ وَهْوَ يتثاءَبُ: لا شيءَ يا أَبي، إلاَّ أَنَّكَ أَيْقَظْتَني مِنْ حُلْمٍ جَميل.

ـ خَيْراً رَأَيْتَ، أَنْ شاءَ اللَّهُ يَاوَالِدي !

ويَنْسَى الغُـلامُ لَذَّةَ النَّوْمِ ودِفْءَ الفِراشِ وَلِسانُهُ يَتَدَفَّقُ بالحديثِ عن الحُلْمِ الذى رآهُ في المَنامِ :

- لقد رأيتُ يا أبي أنّي أُسافرُ إلى مَدينةِ رسولِ اللّهِ صلّى اللّهُ عليهِ وسلَّمَ، وأعودُ منها فَأَرْكَبُ البَحْرَ وَمَعي جَمعٌ كَثير مِنَ النّاس إلى جزيرةٍ نائِيَةٍ.

- خَيرْاً رَأَيْتَ يَاوَلَـدِي، لَقَـدْ أَذَّنَ المُؤَذِّنُ، خُذ الإِبريقَ وتوضَّأ.

وَتَابَعَ الوَالِدُ حَدِيثَهُ قَائِلاً:

- استعِدَّ يا أَسَدُ، وراءَنا أعمالٌ عَديدةٌ، إذ لابدَّ أَنْ أُرْسِلَكَ إلى الشيخِ لتدرسَ في حَلَقَةِ المسجدِ، وبعدَ ذلك سأبدأُ البَحْثَ عَنْ عَمَلٍ.

ويَمْضي الطِّفْلُ يُتْبَعُ خَطْوَ أبيهِ إلى المسجدِ، وما أن انتَهَت صلاةُ الفجرِ حتّى اتخَذَ الشيخُ رُكْناً لَهُ في المسجدِ، وبدأت الحلَقَةُ تتسعُ شَيْئاً فشيئاً، وَتَقَدَّمَ الفراتُ والدُ أسدٍ من الشيخِ، واستأْذَنَهُ في أَنْ يَنْضَمَّ ابنُهُ إلى حلقةِ الشيخِ،

رحَّبَ الشيخُ بهما، وخاصةً عندما عَلِمَ أَنَّهُمْ ضيوفٌ على البَلْدَةِ، ولكنَّهُ عندما رأى الطِّفْلَ استصْغَرَهُ، وكادَ يَعْدِلُ عن موافقتِهِ.

وَفَهِمَ الأَبُ، فأَقْبَلَ على ابنِهِ وقالَ:

أَسْمِعِ الشَّيْخَ يا أَسَدُ سُورةَ «الإنسان».

وانسابَ صوتُ الطفلِ العذبُ يَتْلُو:

«أعوذُ باللّهِ من الشيطانِ الرجيمِ، بسمِ اللّهِ الرحمنِ الرحيم»:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾

واستمرَّ الطِّفْلُ يَقْرَأُ دونَ تَعَثُّرٍ، ويُعْطي الحروفَ حَقَّها من الإدْغامِ والإظْهارِ والقَلْقَلَة، حتَّى أَتى على

نهاية السُّوَرةِ بينَ تكبيرِ الحضورِ.

وكبَّرَ الشيخُ ، وانْفَرَجَتْ أساريرُهُ وقالَ :

ستكونُ أسداً في العلمِ إن شاءَ اللَّهُ، وسنقبلُ انضمامَكَ ـ على الرغمِ مِنْ صِغَرِ سِنِّك ـ ثم أَخَذَ بيدِهِ وأَجْلَسَه إلى يمينِهِ مُرَحِّباً به وقائلاً لِتلاميذِهِ :

أخوكم أَسَدُ قادِمٌ من بلادٍ بعيدةٍ، وأنتم تَعْلَمونَ أَنَّ الرسولَ عَلَيْهِ السَّلامُ قد آخى بين المُهاجرينَ والأَنْصارِ، والمؤمنونَ إخْوَةٌ، فكُونوا لَهُ إِخْوَةً، وأَعينوهُ فيمَا سَبَقَ من دُروسٍ ، وعامِلُوهُ باللُّطْفِ والمَوَدَّةِ.

ثابَرَ أَسَدٌ على مُلازَمَةِ حَلقةِ الشَّيْخِ ، وكان مِثالاً لِطالِبِ العِلْمِ في جِدِّهِ واجْتهادِهِ، وأَدَبِهِ مَعَ شَيْخِهِ، وَحُسْنِ مُعامَلَتِهِ لِزُمَلائِهِ، وَعَفْوِهِ عَمَّنْ يُسِئُ إِلَيْهِ، فأَحَبَّهُ زُملاؤُهُ، وَعَطفَتْ عَلَيْهِ قُلوبُ جميعِ مَنْ عَرَفَهُ، وكانَ إِخْوانُهُ يُمازِحُونَهُ وَيُنادُونَهُ: يا مَلِكَ الحيواناتِ، فلا يَغْضَبُ أَسَدُ بَلْ يُقْبِلُ عَلَيْهِمْ وَهْوَ يقولُ: أنا أَسَدُ وَهْوَ

أَشْجَعُ الوُحوشِ وَأَشَدُّها، وأَبي الفُراتُ وَهْوَ أَعْذَبُ الماءِ، وجدِّي سِنانٌ وَهْوَ أَحْسَنُ السِّلاحِ وَأَمْضاها، فَيَضْحَكُ الجميعُ.

وَمَضَتْ السِّنونَ وَبَدأَتْ قَامَةُ أَسَدٍ تَطولُ، وَعقْلُهُ يَتَّسِعُ، وَلَمْ يَعُدْ يَجِدُ عِنْدَ الشَّيْخِ ما يريدُ من العِلْم.

أسئلةٌ كثيرةٌ تدورُ في رأسِ أَسَدٍ وصَدْرِهِ، إِنَّهُ يُريدُ أَنْ يَعْرِفَ الكثيرَ الكثيرَ عَنْ عُلومِ القرآنِ والحديثِ والفقهِ، ولكنَّ إجاباتِ هذهِ الأَسْئِلَةِ لَمْ تَكُنْ في جُعْبَةِ الشَّيْخِ.

وفي يَوْمٍ من الأيامِ أَلْقى على أُسْتاذِهِ عِدَّةَ أَسْئِلَةٍ كانَتْ تَدورُ في رَأْسِهِ مُنْذُ زَمَنٍ، ولم يَجِدْ لَها جواباً، فَصَمَتَ الشيخُ وأَشاحَ بِوَجْهِهِ عَنْ أَسَدٍ،

وعادَ أَسَدٌ وَهُوَ يَشْعُرُ بِمرارَتَيْن: **الأُولى** لأَنَّه يريدُ أَنْ يَنْتَقِلَ إلى القَيْرَوانِ عاصمةِ النورِ والعلمِ حيثُ يَلْتَقِي بكبارِ الحَفَظَةِ والقُرَّاءِ والفُقَهاءِ. ومرارةٌ **ثانيةٌ** تَعُودُ إلى

إِدْرَاكِهِ أَنَّ عِلْمَ شَيْخِهِ لَمْ يَعُدْ يَرْوِي غَلِيلَهُ.

رَجَعَ أَسَدُ إلى بَيْتِهِ وَقَدْ عَزَمَ على مُكَاشَفَةِ والدِهِ بالأَمْرِ،

وَبَعْدَ أَنْ عَرَضَ عَلَيْهِ القَضِيَّةَ، طَرَحَ عَلَيْهِ فِكْرَةَ الانتقالِ إلى القَيْرَوانِ لِيُتِمَّ فيها تَعْلِيمَهُ.

ما أَنْ نَطَقَ أَسَدُ بِهذا الكلامِ حتى فَاضَتْ دُموعُ الفَرَحِ مِنْ عَيْنَيْ والدتِه، وَسَمِعَ والدَهُ يَلْهَجُ بالشُّكْرِ لِلَّهِ والحمدِ والثَّناءِ على أَنْ شَرَحَ صَدْرَ وَلَدِهِما لِلْعِلْمِ.

كانَ انتقالُ الأسرةِ من هذهِ المدينةِ الصغيرةِ إلى تلكِ المدينةِ التي تعجُّ بالآلافِ من النَّاسِ من مُخْتَلِفِ الأَجْناسِ صَعْباً في باديءِ الأَمْرِ، ثمَّ أَلِفُوا ذَلِكَ فيما بَعْدُ،

كانَ فَرَحُ أَسَدِ عظيماً عِنْدَما التقَى بالمسجدِ الجامعِ بأَفْذاذِ العُلَماءِ، وبدأَ أَسَدُ يَعُبُّ من بُحورِهِمْ

وكأنَّهُ في سِباقٍ معَ الزَّمَن، وَكَانَ يُظْهِرُ كُلَّ يَوْمٍ مَايَدُلُّ عَلَى نَبَاهَتِهِ وَذَكَائِهِ، وَيُبْدي ضُرُوباً مِنَ التَّفَوُّقِ على أَقْرَانِهِ.

وعُرِفَ أَسَدٌ بالطَّالِبِ العالِمِ ، فالعلماءُ يُجِلّونَهُ لما يَعْلَمُونَهُ عَنْهُ مِنْ قُدُرَاتٍ فائِقَةٍ في الفَهْمِ والحِفْظِ، وزُملاؤه يُكبِرُونَهُ لِحاجَتِهِمْ إِلَيْهِ في شَرْحِ ما يَصْعُبُ عَلَيْهِم، وَلِقُرْبِهِ مِنْهُمْ، وَمُلاطَفَتِهِ لهم.

وَكَبِرَ أَسَدٌ، وقارَبَ سِنَّ الشَّبابِ، وضاقَتْ به القَيْرَوانِ كما ضاقَتْ بِهِ مِنْ قَبْلُ تِلْكَ المدينةُ الصغيرةُ، وَبَدأَ نِقَاشُهُ وَجِدالُه مَعَ عُلماءِ القَيْرَوانِ يُدَلِّلُ على أَنَّ أَسداً بِحاجَةٍ إِلى الصَّفْوَةِ من العُلماء، فَمِثْلُ أَسَدٍ لا يَكْتَفي بِعِلْمٍ مَحْدودٍ وَقَدْرٍ يَكْفي لِعامَّةِ طُلابِ العِلْمِ، إنَّـه من أولئكَ الخاصةِ والصَّفْوةِ الذين يَنْطَبِقُ عَلَيْهِم قَوْلُ اللَّهِ تعالى:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾

ويأتـي قرارُ أَسَــدٍ بالـسَّفَــرِ في طَلَبِ العِلْمِ إلى المَشْــرِقِ ، إلى مدينـةِ رســولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، إلى الإمامِ الفقيهِ التابعيِّ الجليلِ مالكِ بنِ أَنسٍ .

يتحقَّقُ حُلْمُ الـطُّفُـولَـةِ، وها هو ذا يَحْزِمُ أَمْتِعَتَهُ، وَيُقَبِّلُ يَدَيْ وَالِدَيْهِ، ثم يَنْثَني على والدتِهِ، فَيَضُمُّها إلى صَدْرِهِ وَهْوَ يَقولُ:

لا تَأْسَيْ على فراقي يا والدتي وأَنْتَ تَسْمَعينَ قَوْلَ رسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَلَكَ طَريقاً يَطْلُبُ بِهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَريقاً إلى الجَنَّةِ».

وتقولُ الأُمُّ التي تَخْشى فِراقَ وَلَدِها، وَتُحْزِنُها غُرْبَتُهُ المُتَجَدِّدَةُ وكأَنَّها تريدُ أَنْ تَثْنِيهِ عَنْ عَزْمِهِ حِرْصاً على قُرْبِهِ مِنْها:

يا وَلدي وفِلْذَةَ كَبِدِي، تَعْلَمُ أَنَّني دائماً كنتُ أَتَمنَّى أَنْ أَراكَ حافِظاً لِلْقُرآنِ، وقد حَفِظْتَهُ فماذا تَطْلُبُ بَعد ؟

وَيَمُدُّ أَسَدُ بَصَرَهُ إلى المَشْرِقِ، وتَتَعَلَّقُ عَيْناهُ بالأُفُقِ وَتُتَمْتِمُ شَفتاهُ حَديثَ رَسولِ اللَّهِ صلَى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ :

«مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْراً يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ» .

وَأَنا يا والدتي طالبُ عِلْمٍ أَنْفَعُ بهِ أُمَّتي وانْتَفِعُ .

وَيَمْضي الابنُ أَسَدٌ على بركاتِ اللَّهِ، زادُهُ التَّقْوى، تُرافِقُهُ دعواتُ وَالِدَيْهِ .

وفي المـدينةِ المنوَّرَةِ يَجِدُ أَسَدٌ ضَالَّتَهُ في مَسْجدِ المُصْـطَفى عَلَيْهِ السَّلامُ وعلى يَدَيْ الإمامِ الجليلِ مالِكِ بن أَنَسٍ يَقْرَأُ المُوَطَّأ وَيَرْويهِ ، ويُشارِكُ العُلَماءَ يَسْأَلُهُمْ وَيَسْأَلُونَهُ يُناقِشُهْم وَيُناقِشُونَهُ .

وفي الـرَّوْضَـةِ الشَّـريفَةِ يُجازُ أَسَدٌ بِحَمْلِ حديثِ رَسـولِ الـلَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّم، وَيُصَلِّي صلاةَ الشكْرِ على أَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ إلى أَنْ حصَّلَ مِنَ العِلْمِ ما

يَتمناهُ، وَبَدَأَ هُناكَ في إِعْدادُ كِتابه في الفِقْهِ وهُوَ الكِتَّابُ الَّذِي سُمِّيَ «الأَسَدِيَّة» نِسْبَةً إِلى أَسَدِ بن الفُراتِ.

وعادَ إلى القَيْرَوان، فَمَا لَبِثَ أَنْ فُجِعَ بِوفَاةِ والدَيْهِ، فَفَـزِعَ إِلى كِتابِ اللَّهِ وحديثِ رَسُولِهِ، وفي المسجدِ الجامعِ جلسَ لِلأَقْرَاءِ والتَّدْرِيس عَمَلاً بِوَصِيَّةِ وَالِدَيْه. وَلَمَعَ اسْمُهُ كَواحِدٍ مِنْ كبارِ العُلَماءِ، واعترفَ الكثيرُ بِفَضْلِهِ وَعِلْمِهِ وَزُهْدِه وَوَرَعِه.

ويسمـعُ الأميرُ زيادةُ اللَّهِ الأَغْلَبِيُّ والي المغربِ الأَوْسَطِ للدَّوْلَـةِ العبَّـاسيةِ بِفِقْـهِ أَسَدٍ وَعِلْمِهِ، فيدْعُوهُ إِلَيْهِ، ويَتَهَيَّأُ مَجْلِسُ الأَميرِ لاسْتِقْبالِ العالمِ الجليلِ.

الأميرُ يَجْلِسُ على أَرِيكَتِـهِ وَمِنْ حَوْلِـهِ الـوزراءُ والأَعْيانُ والعُلَماءُ والأُدَباءُ.

وَيَدْخُـلُ رَجُـلٌ طويلُ القـامَةِ، عريضُ المَنْكَبَيْنِ، ظاهِرُ الصَّدْرِ عَلَيْهِ سَمْتُ العُلَماءِ، يُضيءُ وَجْهُهُ بنورِ الإِيمانِ، وَتُضْفِي عَلَيْهِ لِحْيَتُه الكَثَّةُ هَيْبَةً فَوْقَ هَيْبَتِهِ،

يَدْخُلُ إلى المَجْلِس ، تَتَحَلَّقُ حَوْلَهُ عُيونُ الجالسين، فَتْرَةُ صَمْتٍ يُنْهيها الأَميرُ بِصَوْتِهِ الأَجَشِّ مُرَحِّباً بالأَسَدِ القادِمِ مِنْ مدينةِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

يُرَحِّبُ بِهِ الأَميرُ، وَيُجْلِسُهُ إلى جَانِبِهِ، فَيُباسِطُه الحديثَ، ويَسْأَلُه عَنْ نَفْسِه وأَهْلِهِ، والمشرق وعلمائِهِ ومدينةِ رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وأَهْلِها، ثُمَّ يَنْعَقِدُ مَجْلِسُ المناظَرَةِ، وَقدِ اسْتَعَدَّ جميعُ العُلَماءِ لإظْهَارِ تَفَوُّقِهم على هذا القادِمِ الَّذى جاءَ يُزاحِمُهُمْ مكانَتَهُمْ في بَلَدِهِم وعندَ أَميرِهِمْ، وتأتي إجاباتُ أَسَدٍ لَطيفَةً هادِئَةً واعيةً شافِيَةً كافِيَةً، فَيُقُرّونَ لَهُ جميعاً بالفَضْلِ والتَّقَدُّمِ ، ويخرجُ أَسَدٌ مِنْ مَجْلِسِ الأَميرِ فَقيهاً وقاضياً آخَرَ لإفْريقيا يُقاسِمُ فَقيهَها المعروفَ ابن مُحْرِزٍ مَهَمَّاتِهِ وَمَسؤوليَّاتِهِ.

وَيَبْدأُ أَسَدٌ عَمَلَهُ الجديدَ وكُلُّ هَمِّهِ أَنْ يَقْضي بينَ

النَّـاسِ بمـا جاءَ بِهِ شَرْعُ اللَّهِ، وَيُوَفِّقُ اللَّهُ أَسَداً في القَضاءِ، وَيُصْبِحُ اسْمُهُ على كُلِّ شَفَةٍ ولِسان.

وفي أَحَدِ الأَيَّامِ من العامِ الثَّاني عَشر بَعْدَ المائتينِ لِلْهِجْـرَةِ، وبينمـا كانَ يَجْلِسُ في المسجـدِ الجامعِ لِلْقَضـاءِ إذا برسـولٍ مِنْ عِنْدِ الأميرِ يستأذِنُ عَلَيْهِ في الدُّخولِ، وَيُبَلِّغُهُ دَعْوَةَ الأميرِ لِعَقْدِ مَجْلِسِ القضاءِ الأَعْلى.

وَيَدُقُّ قَلْبُ أَسَـدٍ، ويتسـاءَلُ، مَجْلِسُ القَضـاءِ الأَعْلَى ؟ لابُدَّ أَنَّ أَمْراً عظيماً قد حدَثَ، ويريدُ الأميرُ فَتوى شَرْعِيَّةً،

ويتوجَّهُ أَسَدٌ إلى اللَّهِ يُصَلِّي رَكْعَتَيْن طَويلَتَيْن، ثُمَّ يَرْفَـعُ يَدَيْهِ إلى السَّمـاءِ يَدْعـو ويَتَضَرَّعُ حتَّى تَخْضَلَّ لحيتُهُ بِدُموعِهِ، يَمْسَحُ وَجْهَهُ ثُمَّ يسيرُ مَعَ الرَّسولِ إلى مَجْلِسِ الأَميرِ،

ويُعْلِنُ الحاجِبُ قُدومَ أَسَدٍ فيُؤْذَنُ لَهُ بالدُّخولِ.

يَدْخُلُ ويسلِّمُ ويأخُذُ مَجْلِسَهُ، ينظر في وُجوهِ الجالسين، الأَميرُ ومِنْ حَوْلِهِ أَرْكانُ الدَّوْلَةِ، وَقَدِ اصْطَفَّ العُلَماءُ وكُلُّهُم يُدَقِّقُ في تِلْكَ الوُجوهِ الحَمْراءِ القادِمَةِ عَبْرَ البَحْرِ، وَلَوْلا هَيْبَةُ الأَميرِ وانتظارُ افتتاحِهِ الجَلْسَةَ لسأَلَ أَسَدٌ عَنْ هؤلاءِ الغُرباءِ، وَمَنْ هُمْ ؟ وماذا يُريدون ؟ وما الَّذي جاءَ بِهِمْ إلى مَجْلِسِ المَلِكِ ؟ وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَسَدٌ أَنَّ هؤلاءِ سَيكونونَ رُفقاءَهُ في مَهمَّةٍ خَطيرةٍ وجليلَةٍ.

وانسابَ صوتُ الأميرِ الأَغْلَبِيِّ زيادةِ اللّهِ يَحْمَدُ اللّهَ ويُثْني عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقولُ: كُلُّكُمْ يَتساءَلُ لِمَ جَمَعْتُكُمْ ؟ وَيُصَوِّبُ أَسَدٌ عَيْنَيْهِ في عَيْنَيْ الأميرِ وكأَنَّه يَسْتَعْجِلُه الحديثَ، فَيُطَمْئِنُهُ الأَميرُ وَيُطَمْئِنُ الجميعَ: سَتَعْلَمونَ الآنَ، انظروا إلى هؤلاءِ القومِ، إنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ صِقِلِّيَّةَ، وهذا زعيمُهُمْ أمَيرُ البَحْرِ « أُفيميُوس » جاؤوا إلَيْنَا يَسْتَعِينُونَ بنا، لإنهاءِ ظُلْمِ الرُّومان، وَرَفْعِ الإِصْرِ

والأَغْـلال عَنْ شَعْب صِقِلِّيَّةَ الضَّعيفِ المَحْـروم، وأنتُمْ تَعْلَمـونَ أَنَّ بَيْنَنَـا وَبَيْنَ أميرِ الرومانِ في صِقِلِّيَّةَ مُعاهَدَةً، واللَّه تَعالى يَقولُ:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾

ولكنَّ هؤلاءِ القَوْمَ وَزعيمَهُمْ يُؤَكِّدونَ لَنا أَنَّ الرومانَ قَد نَقَضُوا العَهْدَ، وأَسَرُوا بَعْضَ المُسْلِمين، وَسَجَنُوا الكثيرَ مِنْهُم.

فما تقولونَ أَيُّها الفقهاءُ الأَجِلّاءُ؟ أعينوني بِرَأْيِكُمْ.

ويُدْلـي الـجميعُ بآرائِهِمْ، وكُلُّهُم يَرى أَنَّ الأَمْـرَ مُغـامَرَةٌ خَطيرَةٌ، وَيَظَلُّ أَسَدٌ صامِتاً يَسْتَمِعُ إلى الآراءِ يُحَلِّلُ وَيَزِنُ وَيُرَجِّـحُ، حتَّى قامَ الفقيهُ الجَليل «ابنُ مُحْرِز» صاحِبُ الرَّأْيِ المسموعِ والكلمةِ الفَيْصَلِ، فاشْـرَأَبَّتْ إِلَيْهِ الأَعْنـاقُ، وَتَحَوَّلَتْ الجموعُ إلى آذانٍ واعِيَةٍ، وَدَوَّي صَوْتُه في قاعَةِ المَجْلِسِ سائلاً:

كَمْ بَيْنَنا وَبَيْنَ صِقِلِّيَّةَ؟

وَيَرُدُّ عَلَيْهِ أَحَـدُ الحاضرين، يَذْهَبُ إليها المُسافِرُ في ثلاثَةِ أَيَّامٍ.

وَيُتابعُ ابنُ مُحْرِز سُؤالَهُ: وَكَمْ بَيْنَها وبَيْنَ الرومِّ؟

فيجيبُـه آخَرُ: يَذْهَبُ المُسافِرُ إليها ويعودُ فى لَيْلَةٍ واحِدَةٍ، وهنا يقولُ ابنُ مُحْرِزٍ: لو كنتُ طائراً ما طِرْتُ عَلَيْها.

وتسـري همهمـاتٌ في المجلسِ، وتبـدأُ العيونُ تَبْحَثُ عَنْ أَسَدٍ، لم يكنْ ابن.. مُحْرِزٍ مُثَبِّطاً، ولكنَّه كانَ يَخْشى على المسلمينَ مِنْ أَنْ يَنْقَطِعُوا عن بلادِهِمْ والبَحْرُ مِنْ وَرائِهِمْ.

ويتحفَّزُ الأَسَدُ، وكأَنَّهُ أَسَدُ حقيقيٌّ يُريدُ أَنْ يَنْقَضَّ، وَيُدَوِّي صَوْتُه الجَهْورِيُّ وكَلِمَةُ الجِهادِ تُدَوِّي في أُذُنَيْهِ:

أيُّها الأَميرُ الرَّأْيُ عِنْدي أَنْ نَسْأَل الرُّسُلَ فإِنْ أَكَّدُوا نَقْضَ الـرُّومَـانِ لِلْمُعَـاهَـدَةِ، فَواجِبُنـا أَنْ نَدْفَـع جُنْدَ

الإِسْلام فيما وراءَ البَحْرِ لإعلاءِ كَلِمةِ اللَّهِ.

وينتفِضُ ابنُ مُحْـرز مُعْتَرِضا على سُؤال الرُّسُل،
وَتُشِـعُّ عَيْنـا أَسَـدٍ ببـريقٍ عَجيبٍ، إنَّـه بريقُ الإيمانِ
والإِصْـرَارِ والعَـزْمِ، فيقـولْ: (بـالـرُّسُـلِ عاهَدْنَاهُم
وبالرُّسُلِ نكونُ لَهُمْ نَاقِضين).
وَتُرَدِّدُ جَنباتُ قَصْرِ الإمارةِ صيحاتُ «اللَّهُ أَكْبَرُ».

ويبْـدَأُ البَحْثُ عَنْ قائدِ الحَمْلَةِ، وتَتَطاوَلُ القاماتُ
لهـذا الشَّرَفِ العظيم، ويُحاول كل فَردٍ إظهارَ نفسه
أمـامَ عَيْنَيْ الأمير، وتلتَقي عَيْنـا أَسَـدٍ بِعَيْنَي الأميرِ،
فَيخَـافُ أن يَصُـدَّهُ كَكُـلِّ مَرةٍ كانَ يَطلبُ فِيها الإِذنِ
بالخُـروجِ معَ الجَيْش للجِهادِ فى سَبيلِ اللهِ تَقْدِيراً
لِكِبَـر سِنِـهِ وإبقـاءً لَهُ فى مركـز القضـاءِ والـوعظ
والتَدريسِ. ولكنَّ ابتسامةَ الأميرِ أَدخلتْ السرورَ على
قلبِهِ وما كادَ يصّدِقُ ما سمعَ بأُذنيهِ.

«أَسَـدُ بنُ الفُراتِ هُوَ أَسَدُ الإِسْلامِ، وَهْوَ الذَّي

سَيَقُودُ الحَمْلَةَ » . كُل مَا كَان يُريدُه أنْ يَكُونَ جُنْدِياً في هذِه الحَمْلَةِ فَإذَا بِه يَتَولي قِيادَتِها .

تَصْبحُ الفَرْحَةُ في عُروقِ أسَدٍ، يهنِّئه الحاضرون بهذا الشَّرَفِ، ثم يَبْدأَ الجميعُ بالانسحابِ مِنْ مَجْلِسِ الأمير، ويَبْقى أسَدُ قَليلاً وهو يُفَكِّر فيتساءَلُ الأميرُ: هَلْ مِنْ شَيءٍ تُريدُ أَنْ تُسِرَّهُ يا ابنَ الفُراتِ ؟ فيجيبُ ابنُ الفُراتِ نعَمْ « اصلح اللهُ الأَمير ؟ من بَعْدِ القَّضَاءِ والنظرِ فى حَلالِ اللهِ تعالىَ وَحَرامِه تعْزِلُني وتُولينى الإِمَارَة » .

وَيَضْحَكُ الأَميرُ، وَيُرَبِّتُ على كَتِفِ أَسَدٍ وَيقولُ: « بَلْ وَليتُكَ الإِمَارةَ وأبقيتُ لكَ إسْمَ القَضَاء . فأنتَ قاضٍ أمِير » .

وَيُضْحِ أَسَدُ، حَديثَ النَّاسِ ، يالَهُ مِنْ مَجْدٍ أَحْرَزَهُ، وفَخَارٍ نالَهُ، إِنَّه خَيْرُ الدُّنْيا والآخِرَةِ .

وَيَمْتَطي أَسَدُ صَهْوَة جَوادِهِ، ويَتَجَمَّعُ الجُنْدُ مِنْ كُلِّ حَدْبٍ وَصَوْبٍ للتوجِّه إلى الميناءِ، لِيَعْبُروا البَحْرَ، وَتَعْبرُ مَعَهُم رايةُ لا إلـه إلَّا اللَّه مُحمدٌ رسولُ الله، ويقفُ أَسَدُ بَيْنَ الجُموعِ المُحْتَشِدَةِ التي جاءَت لِوَداعِهِ وَهْيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ بإجلالٍ واحْتِرامٍ كَبيرَيْنِ وَيَهْدُرُ الأَسَدُ في هذه الجموعِ قائِلاً:

أيُّها النَّاسُ: إنّكُمْ تَنْظرونَ إليَّ، وَوَاللَّهِ ما أَحْرَزْتُ هذا عن نَسَبٍ أَوْ حَسَبٍ أَنْتَمي إِلَيْهِ، ولا مالٍ وَفيرٍ وَرِثْتُه عَنْ وَالِدَيّ ولكنّي أَحْرَزْتُ ما تَرَوْنَ بالعِلْمِ، وبالعِلْمِ وَحْدَه.

وَيَعْبُرُ أَسَدُ بجنودِهِ البَحْرَ المتلاطِمَ بِسُفُنِهِ المتواضِعةِ، وتلوحُ لَهُمْ بَعْدَ أيَّامٍ صِقِلِّيَّةُ بمينائِها «مازَر» الحصين، وَتَمُسُّ أَرْجُلُ الجنودِ ترابَ الجزيرةِ، وَهُمْ يَهْتِفونَ «اللَّهُ أَكْبَرُ» فتدوِّي بها جَنباتُ الجزيرةِ لأَوَّلِ مَرَّةٍ في تاريخِها، ويستيقظُ سُكَّانُها على صَوْتٍ جديدٍ

أَحسَّـوا بِهِ يَمْسَـحُ عن صدورِهِمْ وَطْأَةَ ظُلْمِ الرُّومانِ وَصَداً السِّنين الطويلةِ.

وَبَدَأَت ٱلمَعْرَكَةُ، وَخَاضَ ٱللَّيْثُ الهَصُورُ أَسَدُ بنُ الفُرَاتِ بِجُنْدِهِ المَعْرَكَةَ تِلْوَ ٱلمَعْرَكَةِ، فَفَتَحَ « مَازَرَ » بَعْدَ أَنْ هَرَبَ القَائِدُ الرُّومانِيَّ « بلاطَةُ » بِجُمُوعِهِ واستَوْلَى على عِدَّةِ حِصُونٍ وَغَنِمَ مَغانِمَ كثيرةً، وحاصَرَ قِلاعَهُمْ وَحُصـونَهُمْ، وَقَبْـلَ أَنْ تَلوحَ بشـائِـرُ النَّصْرِ غَدَرَ بِهِمْ «أُوفيميوس» أميرُ البَحْرِ الذي جاءَ مُسْتَغيثاً وَانضَمَّ إلى الأَعْداءِ، وكأنَّه اختبارٌ من اللَّهِ، وزادَ الابتلاءُ، فقلَّت الأقـواتُ وشحَّت المُؤنُ، وتَفَشَّى المَرَضُ فى جيش المسلمين، وفكَّـرَ البَعْضُ في العَـوْدَةِ، فهـاجَ البَحْرُ هَيَجـانـاً شديداً وكأَنَّهَ يَمْنَعُهُمْ حتَّى بالتَّفْكير في هذا الأَمْـرِ بَعْدَ أن اسْتَمْتَعَ بِحلاوَةِ ذِكْرِ اللَّهِ، وَيَحْزَنُ أَسَدُ لِحـالِ جُنْـدِهِ، ولـكنَّهُ يَحْسِـمُ أَمْـرَهُ وَيُقَرِّرُ مُحاصَرَةَ « قَصْرُيَانَةْ » الحصينَة وَفَتْحَها ـ على الرَّغْمِ مِنْ حَالَةِ جُنْدِه ـ فَهذا وَحْدَهُ كَفيلٌ بإعادَةِ الرُّوحِ إِلَيْهِمْ.

وفي صباحِ اليَوْمِ التالي يَظْهَرُ أَسَدُ على ظَهْرِ جَوادِهِ، وَهْوَ يخُوضُ مَعْرَكَةَ «قَصْرُيَانَة» وَيَتْلُو سورَةَ الأَنْفالِ على مَسامِعِ جُنْدِهِ.

وَهَبَّت رِياحُ الإيمان، وَبَدأَتْ حُصون «سَرَقُوسَة» و «قَصْرُيَانَة» تُفْتَحُ أَمامَ الجنودِ المؤْمِنين.

وَتَحْتَ أَسْوارِ أَحدِ الحُصونِ سَقَطَ أَسَدُ عَنْ جَوادِهِ بَعْدَ أَنْ أُثْخِنَ بالجِراحِ. نَظَرَ إلى جُنْدِهِ وَهُمْ يَدْخُلون الحِصْنَ، فَكَبَّرَ وَدَعا لَهُمْ بالنَّصْر، ثُمَّ نَظر إلى قَدَمَيْهِ المُلَطَّخَتَيْن بالدِّماءِ، وغامَتْ عَيْناهُ بسحابَةِ ذِكْرى عِنْدَما كانَ صَغيراً قادماً مَعَ أَبيهِ إلى القَيْروانِ، وَشَكا مِنْ شِدَّةِ الأَلَمِ في أَقْدامِهِ، واسْتَرْجَعَ كَلماتِ أَبيهِ: « احْفَظْ عَنيِّ يا أَسَدُ إنَّ قَدَمَي الإنْسانِ تَقُودَانِه إلى الجَنَّةِ أَوِ النَّارِ، فاسْعَ يابُنَيَّ بِهما إلى الجَنَّةِ ».

وعلى دَقّاتِ طُبول النَّصْرِ، نَطَقَ أَسَدٌ بالشَّهادَتَيْن، وَأَغْمَضَ عَيْنَيْهِ شَهيداً في سَاحِ الجِهادِ.


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

